بعض المدارس والحركات الحديثة في علم اللغة

ترجمة: عباس خضير حسين *

التاريخية Historicism

سأناقش في هذا الفصل [1] بعضًا من حركات علم اللغة Linguistics في القرن العشرين التي قد شكلت وجهات نظر سائدة وفرضيات. وأول هذه الحركات التي صنفتها "التاريخية" التي هي عادة الأفكار التي تميزت بأنها فكرة علم اللغة في فترات مبكرة. وأنها من الأهمية بمكان للصلة الحالية التي هيأت الطريق إلى البنوية Structuralism .

إن ما كتبه اللغوي الدانمركي الكبير أوتوجيسبيرسن Otto Jesperson عام 1922 والذي بدأ واحداً من أكثر الكتّاب إمتاعًا وإثارة للجدل في كل كتبه العامة في اللغة، بدأه بالجملة التالية "إن الصفة المميزة لعلم اللغة كما تفهم في هذه الأيام هي الميزة التاريخية". إن جيسبيرسن Jesperson قد عبر هنا عن وجهة النظر نفسها التي تبناها هيرمان باول Herman Paul في كتابه (مبادئ تأريخ اللغة) Principals of Language History الذي طبع لأول مرة عام 1880 وقد وصف عمومًا بأنه إنجيل النحويين الأرثوذكسي الجديد. والفكرة هي (مقتبسة من الطبعة الخامسة من كتاب باول الذي ظهر عام 1920) "انه حالما يذهب المرء وبمجرد أن يكون بجوار التعبير عن أفكار قائمة فإنه حالما يحاول أن يمسك بروابطها، وأن يفهم الظواهر، فإنه يدخل إلى حقل التأريخ وقد يكون ذلك من حيث لا يدري". وكلا كتابي جيسبيرسن Jesperson والطبعة الخامسة لكتاب "المبادئ" لباول paul سنلاحظ

---

* كاتب ومترجم عراقي

أنها طبعت بعد سنوات عديدة من كتاب "كورس في علم اللغة العام" المطبوع بعد وفاة سوسير الذي دشن الحركة الآن والمعروف بالبنيوية Structuralism وقبل سنوات من تأسيس دائرة براغ اللغوية Prague Linguistic التي ترتبط فيها البنيوية بالوظيفية Functionalism والبعض من أفكار توليدية اليوم الحالية هي في الأصل أفكارهما. إن البنيوية والوظيفية والتوليدية هي الحركات الأساسية ووجهات النظر التي سنهتم بها في هذا الفصل.

وعلى فكرة، فإنه من الممتع أن نلاحظ بلومفيلد Bloomfield في كتابه "اللغة" (1935) في حين يدرك الجدارة الكبيرة لباول Paul في كتابه "المبادئ" فإنه ينقده ليس بسبب تاريخيته وإنما أيضًا بسبب ذهنيته واستبداله لما اعتبره بلومفيلد Bloomfield من إيضاحات فلسفية ونفسية زائفة بما يخص الاستقراء العام على أساس "دراسة اللغة الوصفية". لقد رجعنا إلى نقطة البداية! ولذلك، وكما سنرى لاحقًا، وصفية بلومفيلد (التي قد تعتبر كرواية أمريكية مميزة للبنيوية) قد زودت البيئة التي ولدت فيها تحويلية تشومسكي Chomsky وضد من تفاعلت. إنه من المستحيل في كتاب بهذا الشكل أن تكون منصفًا إزاء الوشائج المعقدة الموجودة بين مدارس علم اللغة في القرن العشرين والتأثير الذي تمارسه مدرسة في أخرى. وما يأتي في هذا الفصل فإنه على درجة عالية من الانتقاء والضرورة، ويتضمن عددًا معينًا من التأويلات. وإنه بالطبع، الحقيقة التي تقول بأنه لا يمكن للفرد أن يحقق منظوراً تاريخياً أصيلاً للعلاقات بين الأفكار ووجهات النظر المعاصرة، وحتى لو حاول أن يفعل ذلك فإنها نفسها شكلٌ من أشكال التاريخية!

ولكن ما التاريخية، باختصار، اعتماداً على الانطباع الذي يولده استخدام هذا المصطلح؟ إنها وجهة النظر التي يعبر عنها باول Paul بقوة في مقطوعة قد اقتبست منها جملة واحدة كما مر، ذلك بأن علم اللغة، ومنذ فترة طويلة كما هو، أو يطمح أن يكون علميًّا فإنه بالضرورة يكون بتاريخية ملائمة. وأكثر خصوصية، فإن المؤرخ يأخذ بالرأي الذي يقول بأن الشكل الوحيد للوضوح الذي يكون فعالاً في علم اللغة هو الشكل الذي قد يعطيه المؤرخ، وهو: أن اللغات كما هي عليه وذلك، وعلى مسيرة الزمن، فإنها كانت ولا تزال عرضة لأنواع عديدة من المؤثرات السببية الداخلية والخارجية، تلك المؤثرات التي أشرنا

إليها نهاية المبحث (5-6) في الفصل الخاص بعلم اللغة التاريخي. ولو أخذنا وجهة النظر هذه، فقد اعترض لغويو القرن التاسع عشر الكبار ضد أفكار فلاسفة التنوير الفرنسيين French Enlightenment وأسلافهم عبر تقليد طويل، والذي يرجع في الأساس إلى أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle والرواقيين [2] Stoics، وهدفه أن نستنتج الصفات الكلية للغة مما هو معلوم أو مفترض أن يكون الخصائص الكلية لذهن الإنسان.

إن التاريخية بهذا المعنى الذي استخدم فيه المصطلح لا تتضمن بالضرورة النشوئية Evolutionism : التي هي وجهة النظر المتعلقة مباشرة بالتطور التاريخي للغات.

ولقد أثرت التاريخية تأثيرًا تامًّا في علم اللغة أواخر القرن التاسع عشر، ولقد دافع جيسبيرسن Jesperson عن رواية خاصة بها في كتابه المشار إليه آنفًا. أما الروايات الأخرى فقد وضعت مقدمًا من قبل مثاليي المدارس المختلفة وبالطبع أيضًا في إطار المادية الديالكتيكية للماركسيين. وعلى أية حال، فإنه من المحتمل حقًّا أن نقول، وباستثناءات جديرة بالذكر: إن معظم اللغويين في القرن العشرين يرفضون النشوئية. إن التاريخية، كما سنرى في المبحث اللاحق، واحدة من الحركات التي وقفت ضدها البنيوية ورفضتها وقد تعرف بقدر ما بينهما من صلات.

البنيوية Structuralism

ما يشير عمومًا إلى البنيوية Structuralism في أوروبا بخاصة هو الأصل المتعدد. إنه من التقليدي والملائم أن تؤرخ ولادتها كحركة مماثلة في علم اللغة منذ أن طبع كتاب سوسير (دروس في علم اللغة العام) عام 1916. فالعديد من أفكار سوسير التي جاء بها معا في محاضراته التي ألقاها في جامعة جنيف بين 1907-1911 (التي يستند إليها كتابه أعلاه) يمكن أن تعزى إلى القرن التاسع عشر وما بعده.

إن العديد من الاختلافات المتكونة في البنيوية السوسيرية Saussurean Structuralism كانت ولا تزال حتى الآن موضع الصدارة (ومع ذلك ليس دائمًا في مصطلحات سوسير الفنية). إنها تكفي لكي تبقي قارئها وتظهر كيف أنها متوافقة معًا. ونظرًا لأننا قد ناقشنا

توا المدرسة التاريخية Historicism فإنه من الطبيعي أن نبدأ بالاختلافات بين وجهات النظر التزامنية Synchronic والتاريخية diachronic إزاء دراسة اللغة.

وكما نرى أن اللغويين المحدثين Neogrammarians تبنوا وجهة النظر القائلة بأن اللغة إلى الحد الذي تكون به علمية وتفسيرية يجب أن تكون تاريخية بالضرورة. وبالضد من هذا الرأي، فإن سوسير يجادل فيقول: إنَّ الوصف المتزامن للغات خاصة يجب أن يكون علميًّا على حد سواء، وكذلك فإن ذلك يمكن أن يكون تفسيريًّا. إن الوضوح المتزامن يختلف عن التاريخي، إنه وضوح بنيوي Structural أكثر مما هو سببي: إنه يعطي أشكالاً عدة من جواب للسؤال "لماذا هي الأشياء كما تبدو؟" بدلاً من أن نرسم تطورًا تاريخيًّا لأشكال خاصة أو معان في نقطة محددة من الزمن لنظام لغة خاص. وإن من المهم أن ندرك أنَّ مقابل وجهة نظر النحويين المحدثين أن سوسير لا ينكر شرعية التفسير التاريخي. لقد بنى سمعته وهو شاب يافع جدًّا ببناء جديد رائع لنظام أصوات العلة الأند وأوروبي البدائي ولم يتخل أبدًا عن متعته في علم اللغة التاريخي. إن الذي قاله في محاضرات جنيف في علم اللغة العام إن الصيغة التفسيرية المتزامنة Synchronis والتاريخية diachronic كلتيهما متممة للأخرى، وإن الخلف يعتمد منطقيًّا على السلف.

إنها مثلما نحن نسأل لنبيّن لماذا، دعنا نقول: لماذا تكون ماكينة سيارة الرولز رويس بموديل معين كما هي عليه كل سنة. بإمكاننا أن نعطي تفسيرًا متزامنًا بلغة الاختلافات التي حدثت خلال السنوات في تصميم الكابريتر وعمود الكرنك.. إلخ وأن هذا سيكون بالضبط الجواب المناسب للسؤال. واختيارًا، فإنه بإمكاننا أن نصف دور كل جزء يلعبه في نظام متزامن، ولكي نقوم بهذا يجب أن نصف كيف تتوافق أجزاء الماكينة معًا، وكيف تعمل. وهذا سيكون تفسيرًا لاتاريخيًّا ولابنيويًّا (ولاوظيفيا) للحقائق. ومنذ أن كانت اللغات غير متشكلة، من وجهة نظر دي سوسير على الأقل، ولم تتطور خلال الزمن طبقاً لبعض الأغراض الخارجية والداخلية، فإنه يجب علينا أن نكون على حذر من أن نقحم هذا التشابه الجزئي بشدة لماكينة السيارة (فحسب كما يجب ألّا نقحم التناظر الجزئي الخاص بسوسير حول لعبة الشطرنج). وان دي سوسير يلتمس عذرًا لغياب سيطرة المصمم

والفرق بين الماكينة والعرف الاجتماعي، نستطيع القول، وبشرعية تامة، ولو مجازًا: إن الوصف البنيوي للغة يعلمنا كيف تكون مكوناتها معا.

هناك جوانب محددة في تمييز دي سوسير بين وجهات النظر المتزامنة Synchronic والتاريخية diachronic وهي جوانب خلافية ولا نقول متناقضة ظاهرياً: على وجه الخصوص توكيده أن البنيوية ليس لها تاريخ في اللغات التاريخية. وهذا تناقض ظاهري إزاء النظر إلى الحقيقة، ذاك بأن عمل سوسير المبكر حول نظام أصوات العلة الأندوأوروبي البدائي عام 1879 يمكن أن يرى على أنه ينذر بما نصفه لاحقًا بإعادة البناء الداخلي وكما كنا ولا نزال نرى أن طريقة إعادة البناء هذه دقيقة لاحقًا وقد تبناها الدارسون الذين أسموا أنفسهم بالبنيويين ورسموا إيحاءهم، ولو جزئيًا على الأقل، من سوسير. وعلى أية حال فإنه سيبدو أن سوسير نفسه، اعتقد خطأ أو صوابًا أن كل المتغيرات التي نشأت خارج نظام اللغة Language System بذاتها لم تأخذ في الاعتبار ما سيكون لاحقًا متماثلًا كضغوط بنيوية مع نظام لغوي يعمل كعوامل سببية داخلية لتغير اللغة. ولا نحتاج إلى المزيد لنتكلم عن هذا.

نحتاج إلى القليل لكي نقول إما بخصوص تقسيم سوسير بين اللغة Langue[3] والكلام Parole : أي بين نظام اللغة Language System وسلوك اللغة Language Behavior . ما يجب أن نؤكده في هذه النقطة هو خلاصة مفهوم دي سوسير عن نظام اللغة. يقول سوسير: إن اللغة هي شكل Form وليس مادة Substance . إن مصطلح "الشكل" قد تأكد جيدا في هذا المعنى في الفلسفة وما يتصل بها من جانب ومفهوم ولهيلم فون هامبولدت Wilhelm Von Humboldt تجاه الشكل الداخلي للغة وبين مفهوم الشكليين الروسيين للشكل كنقيض للمضمون في تحليل الأدب. ولكنه احتمال خاطئ. ونحن لا نقوم بتحريف فكرة سوسير إذا قلنا بأن اللغة هي بناء Structure وعند تطبيق استخدام هذا المصطلح فإنها مستقلة عن المادة الطبيعية أو الوسط الذي من خلاله تفهم. فالبناء "Structure" بهذا المعنى هو مكافئ Equivalent إلى حد ضئيل أو كبير للنظام "System" : فاللغة هي نظام ذو مستويين، هما: العلاقة الأفقية بين العناصر اللغوية Syntagmatic والعلاقة البديلة أو الرأسية Paradigmatic . إنه معنى "البناء" هذا الذي نمنحه تأكيدًا خاصًا للاتحاد الداخلي والعلاقات المقارنة مع نظام اللغة، ذاك

النظام الذي يعطي مصطلح "البنيوية" معانيَ مناسبة ومختلفة للعديد من مدارس علم اللغة في القرن العشرين والتي قد يختلف بعضها عن البعض الآخر في نواح عدة بضمنها خلاصة مفهومها عن أنظمة اللغة ووجهات نظرها وتصورها عن التجانس. وكما سنرى لاحقًا، فالتوليدية Generativism هي رواية خاصة للبنيوية بهذا المعنى العام تمامًا.

ولكن هناك سمات أخرى للبنيوية السوسيرية Saussurean Structuralism تميزها. وأولها تأكيد "أن الموضوع الأول والأوحد لعلم اللغة هو نظام اللغة المتصور بذاتها ولذاتها". وفي الحقيقة، فإن هذا الاقتباس المأخوذ من كتاب كورس في علم اللغة العام، قد لا يمثل بالضبط وجهة نظر سوسير منذ أن ظهرت هذه المقطوعة والتي كانت ولا تزال من إضافة المحرر من دون تفويض في المحاضرات ذاتها. وهناك بعض الشك أيضًا إزاء ما يقصد بـ "بذاتها ولذاتها". وعلى أية حال، ففي عرف سوسير فإنها كانت ولاتزال تؤخذ لكي تدخل حيز التطبيق بأن بناء نظام اللغة هو ذلك البناء الذي يمكن إيجازه ليس من خلال قسريات التاريخ التي جاءت بها إلى حيث تكون، ولكن أيضاً من خلال نسيجها الاجتماعي الذي تعمل فيه والعملية السيكلوجية التي اكتسبت بها وجعلتها ممكنة الاستعمال كسلوك لغة. وهكذا فترجمة شعار سوسير، فيما لو بدأنا بالأستاذ نفسه أولا، كانت ولا تزال تستعمل غالبًا لإثبات مبادئ استقلال علم اللغة autonmy of Linguistics (بعبارة أخرى إنها استقلال لفروع أخرى من فروع الدراسة) وبين التميز المنهجي الذي رسمناه في الفصول السابقة، بين علم اللغة البنيوي Microlinguistics ودراسة أنواع اللغة البشرية Macrolinguistics وأنه في أحيان معينة كان ولا يزال يتوافق مع ما اختلف معه إلى حد ما وليس بأقل من كونه بنيويًا على حد مميز، الشعار الوحيد الذي يجب على كل نظام لغوي أن يصفه بمصطلحاته الخاصة به. وسنعود إلى هذه النقطة لاحقًا. وقد يبدو لي هناك نوع من الصراع بين وجهة نظر سوسير (فيما لو كانت وجهة نظره حقًا) ذاك بأن نظام اللغة Language System يجب أن يدرس بالتجريد عن المجتمع الذي يكون فيه مؤثرًا (الذي يحملها بالتأكيد) وبعيدًا أيضًا عن الرأي الذي يقول بأن اللغات هي عوامل اجتماعية. إن هذا الصراع ظاهر وحسب. وفيما لو أن اللغات عوامل اجتماعية أي بالمعنى الذي يستخدم فيه مصطلح

"الحقيقة الاجتماعية" من قبل العالم الاجتماعي الكبير الفرنسي إميل دوركيم (Emile Durkheim 1817 - 1858) المعاصر لدي سوسير واللذين كانت لهما مبادئهما التأسيسية الوحيدة الخاصة بهما. وكما كنا ولا نزال نلاحظ أن التحليل البنيوي لنظام اللغة لا يتأثر بالتقدير العرضي عن كيفية وجود هذا النظام كما هو عليه. وحينما نقول: إنَّ أنظمة اللغة هي عوامل اجتماعية فإن سوسير يؤكد عدة أشياء: إنها تختلف عن الأشياء المادية، على الرغم من أنها ليست بأقل من كونها حقيقة واقعة وذاك بأنها خارجية عن الفرد مما يجعله ذاتيا إزاء قواها المقيدة، وأنها أنظمة ذات أهمية مصونة من قبل العرف الاجتماعي.

وأكثر خصوصية، فإنه أخذ بالرأي الذي يقول: إن أنظمة اللغة هي أنظمة علاماتية أي متعلقة بالعلامات التي بها ولها دلالات بلفظة أو إشارة أو إيماءة مرتبطة اعتباطا لما تشير أو تومئ إليه. وهذا هو مبدأ دي سوسير المشهور عن اعتباطية العلامة أو الإشارة اللغوية. المبدأ الذي ناقشناه على انفصال بخصوص الدور الذي يحققه في بنيوية دي سوسير في الفصل السابق. إن النقطة المهمة التي نلاحظها هنا، وإنها ضرورية لفهم بنيوية دي سوسير هي: إن العلامة أو الإشارة أو الإيماءة ليست شكلًا ذا معنى وإنما هي: كيان مؤلف ينتج ممّا يفرضه البناء على مادتين بعلاقات اتحادية مقارنة لنظام اللغة. فالمعنى لا يمكن أن يكون موجودًا بشكل مستقل عن الأشكال الأخرى المرتبطة معها والعكس صحيح. يقول سوسير: لا يجب أن نعتقد أن اللغة هي مجموعة مصطلحات أو رموز، أو أنها: مجموعة أسماء أو رموز لمفاهيم أو معانٍ قبل الوجود.

إن معنى كلمة – أو أكثر – ذلك الجزء الذي يهتم بمعناه والذي أسماه سوسير "بالدلالة" (وهو ما يتعلق بالمعنى والذي هو ضمن نظام اللغة داخليًّا وكليًّا، وضمن معناها أكثر مما هو تجاه مرجعها ودلالتها) إنما هو نتاج علاقات دلالية معقودة بين تلك الكلمة وبين الكلمات الأخرى في نظام اللغة نفسه. ولكي نستشهد بالتمييز التقليدي والفلسفي بين الماهية والوجود فسنستخلص ليس ماهيتها فقط (أي جوهرها) ولكن وجودها كذلك (أي حقيقة ذلك كما يكون) من خلال العلاقات البنيوية التي يفرضها نظام اللغة على مادة

التفكير المختلفة غير البنيوية. والشيء نفسه ما دعاه سوسير بـ "الدلالة" للكلمة – شكلها الصوتي – كما هي عليه – كنتائج هي في النهاية من شبكة من المقارنات والمكافئات التي يفرضها جزئيا نظام اللغة على صوت متصل.

نحن نريد أن نكسب من استقصائنا لبنيوية سوسير بحد ذاتها لا أكثر. لقد كان ولا يزال يقوله إنه صعب أن يفهم عندما يصاغ في مصطلحات عامة كما هي عليه الحال هنا. على أية حال، يجب أن تفهم إلى أقصى الحد الذي يفرض فيه البناء على مادة الصوت وما يتعلق بها في ضوء التمييز المرسوم مبكرًا بين الصوتي phonetics ودراسة النظام الصوتي Phonology فيما لو كان بوسعنا – إن صح لنا – أن نتكلم عما يفرضه البناء على مادة التفكير بنفس نوع الطريقة لكي نقول، على الأقل، إنها موضع إشكال وجدل.

إن رأي سوسير حول أنظمة اللغة الاستثنائية والعلاقات بين البناء والمادة أدى بالطبع، ولو على الإطلاق وعلى النحو المحتوم، إلى فرضية النسبية اللغوية Linguistic relativity الفرضية التي تقوم على أساس أنه لا يوجد هناك خصائص شاملة للغات الإنسانية (أكثر من خصائص دلالية عامة محدودة كالاعتباطية والتوليدية والثنائية والمنفصلة) الفرضية التي تنطوي على كون كل لغة كما تكون حتى بفقهها. إن أي حركة أو أي وجهة نظر في علم اللغة تقبل بهذا الرأي فإنها في متناول الإشارة إلى النسبية Relativism وتقارن بالعمومية Universalism . إن النسبية، بصيغة قوية أو ضعيفة كانت ولا تزال ترتبط مع أكثر الصفات الأساسية لبنيوية القرن العشرين. وإلى حد ما يمكن أن ترى على كونها رد فعل منهجي صحي إزاء النزعة التي تصنف اللغات الفطرية للعالم الجديد New World بلغة أصناف النحو التقليدي الغربي. ولقد كان ولا يزال أنصار النسبية يدافعون عنها وعن ارتباطها بالبنيوية تجاه القرينة (سياق الكلام) الأكثر إثارة للجدل حول القضايا الفلسفية التقليدية كالعلاقة بين اللغة والذهن والدور الذي تلعبه اللغة في اكتساب وبيان المعرفة. ولقد كان ولا يزال كل من فلسفية ومنهجية النسبية مرفوض لدى تشومسكي وأتباعه وذلك ما سنراه في تأسيسهم لمبادئ التوليدية generativism . إن ما نحتاج إليه لنؤكده هو الحقيقة التي تقول بالرغم من وجود رابطة تاريخية قوية بين البنيوية والنسبية فإنه كان ولايزال هناك العديد

من البنيويين، ومنهم ما تجدر الإشارة إليه رومان جاكوبسن Roman Jakopson والأعضاء الآخرين من مدرسة براغ الذين يرفضون تمامًا الأشكال الثابتة للنسبية. وهذا الأمر لم يكن قائمًا على علم اللغة فحسب، وإنما في حقول أخرى من حقول المعرفة كالأنثروبولوجية الاجتماعية التي كان ولا يزال تأثير البنيوية فيها مهمًّا في القرن العشرين.

وسوف لا نسبر الغور في العلاقة بين علم اللغة البنيوي والبنيوية في حقل آخر من حقول الاستقصاء. وعلى أية حال، يجب أن نقوِّم البنيوية على أنها حركة صارمة في تطبيق النظام المتبادل. وبالخصوص كانت ولا تزال البنيوية الدي سوسيرية ذات تأثير فعال في تطور اللغة الفرنسية على نحو مميز في الوصول إلى ما يتعلق بالعلامات Semiotics (أو علمها Semiology) وتطبيقها في النقد الأدبي من جهة، وفي تحليل المجتمع والثقافة من جهة أخرى. وعندما نتناول البنيوية "Structuralism" بمفهوم عام يمكننا القول بأنها كما قال الفيلسوف أرنست كاسيرر Ernst Cassirer : إن "البنيوية ظاهرة غير معزولة، إنها أكبر من النزعة العامة للتفكير والتي قد أصبحت في هذه العقود الأخيرة بارزة أكثر وأكثر في جميع مجالات البحث العلمي تقريباً "إن ما يميز البنيوية في إطار هذا المفهوم العام هو ما يتعلق بقدر كبير بالعلاقات القائمة بين الكينونات أكثر بما يتعلق بالكينونات نفسها. إن هناك وشيجة طبيعية، من هذه الناحية، بين البنيوية والرياضيات، وإن هناك نقدًا مألوفًا إلى حد بعيد تجاه البنيوية، هو إنها تبالغ في النظام، والأناقة، وعمومية أسلوب العلاقة في المعلومات موضع البحث.

الوظيفية Functionalism

إن مصطلحي "الوظيفية" و"البنيوية" غالبًا ما يستخدمان في الأنثروبولوجية الاجتماعية وعلم الاجتماع؛ للإشارة إلى نظريات أو طريق المقارنة في التحليل. وعلى أية حال، ففي علم اللغة أن الوظيفية Functionalism ترى بشكل جلي كحركة مستقلة مع البنيوية. إنها تتميز بالاعتقاد الذي ينطوي على أن بناء اللغة الصوتي والنحوي والدلالي يتحدد بالوظائف التي يؤديها في المجتمعات التي يؤثر فيها. وإن خير ما يمثل الوظيفية بهذا المعنى

الذي ينطوي عليه هذا المصطلح هم أعضاء مدرسة براغ Prague School التي تأسست عام 1926 التي أثرت خصوصًا في علم اللغة الأوروبي في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية. ولم يكن كل أعضاء مدرسة براغ، اتفاقاً، ينطلقون في مدرسة براغ ولم يكن جلهم من الجيك. وكان اثنان من أكثر أعضائها تأثيرًا هما رومان جاكوبسن Roman Jakobson ونيكولاج تروبتزكوي Nikolaj Trubetzkoy اللذان كانا لاجئين من روسيا، فالأول درس في برنو Brno، والثاني في فينا Vienna . وخلال عام 1928 عندما أعلن البيان الرسمي لمدرسة براغ (كما أسماه أحدهم) وقدم إلى المؤتمر الدولي الأول لعلم اللغة الذي عقد في هاغ Hague كان الدارسون من شتى البلدان الأوروبية قد بدءوا في التواصل فيما بينهم من قريب أو بعيد مع الحركة. إن مدرسة براغ قد كانت دائمًا تعي كونها مدينة إلى بنيوية دي سوسير بالرغم من كونها قد اتجهت نحو رفض رأي دي سوسير حول قضايا محددة بخاصة التميز الصارم بين علم اللغة التزامني Synchronic Linguistics والتاريخي Diachronic Linguistics وتجانس نظام اللغة.

إنه علم الصوت الذي تميزت به مدرسة براغ أولاً. وفي الحقيقة فإن نظرية المقارنة الوظيفية التي استشهدنا بها كما مر لرسم الحد الفاصل بين الصوتي Phonetics ودراسة النظام الصوتي Phonology .

إنها في الأساس نظرية تروبتزكوي Trubetzkoy الذي كان مفهومه عن الملامح المميزة Distinctve Features التي عدلت من قبل جاكوبسن Jakobson ثم من قبل هول Hall (الذي عمل بالاشتراك مع تشومسكي Chomsky) والتي كانت ولا تزال متحدة مع نظرية علم الصوت التوليدي. ولكن الملامح المميزة distinctive features للخصائص الصوتية هي النوع الوحيد ذو الوظائف اللغوية ذات العلاقة التي أدركها تروبتزكوي Trubetzkoy وأتباعه. وكذا تجدر الإشارة إلى تحديد الحدود الوظيفية demacative Function والوظيفية التعبيرية Expressive Features من جهة ثانية. والعديد من الملامح التطريزية [4] Suprasegmetal Features تشير إلى النبرة Stress والنغمة Tone والطول length ... إلخ لها خصائص وظيفية محددة أكثر مما هي وظائف مميزة، وظائف في نظام لغة مستقل، وهذا ما دعاه تروبتزكوي Trubetzkoy

بعلامات التحديد. إنها لا تصلح لتميز شكلاً من آخر في البعد الاستبدالي للمقارنة (أو في مصطلحات سوسير العلاقات الرأسية Paradigmatic) إنها تقوي الالتحام الصوتي للأشكال؛ وتساعد على تشخيصها بالعلاقة الأفقية بين العناصر اللغوية Syntagmatic كونها وحدات وذلك برسم حدود بين شكل وآخر في سلسلة الكلام. وعلى سبيل المثال، في العديد من اللغات، بضمنها الإنكليزية، لا يوجد أكثر من نغمة صوتية stress أولية مرتبطة مع كل شكل من صيغة الكلمة ومنذ أن كان موقع النغمة الصوتية الأولية فوق شكل الكلمات في اللغة الإنكليزية يمكن التنبؤ به جزئيّا فقط فإنه يرتبط بمقطع لفظي واحد أكثر من المقاطع الأخرى ولم يشخص حدود الكلمة تماماً وبوضوح كما هي الحال في اللغات (البولندية Polish، أو الجيكية Czech ، أو الفنلندية Finnish) بما يسمى النغمة الصوتية الثابتة. ومع ذلك، فإن نبر الكلمة Word stress له وظائف مرسومة الحدود في اللغة الإنكليزية. وكذا الحال أيضًا في حدود التتابع الجزئي للوحدات الصوتية المميزة (الفونيمات Phonemes). على سبيل المثال، الصوت ه / h / نادرًا ما يحدث في الإنكليزية (باختلاف الأسماء المميزة) ما عدا بداية الوحدة الصرفية (المورفيم Morpheme)والصوت انك / g / لا يحدث أبدًا ما لم يتبعه صوت صامت consonant ما عدا حدوثه نهاية الكلمة. إن حدوث أي من هذه الوحدات الصوتية المميزة (الفونيمات Phonemes) سيفيد، على أية حال، في تحديد حدود موقع الوحدة الصرفية (المورفيم morpheme). إنها ليست ملامح تطريزية Prosodic features لها وظائف محددة في نظام اللغة، وهذا ما فشل في تحديده إلى حد ما معظم علماء الصوت. إن الحقيقة هي أن تتابع الفونيمات ليس ممكنًا، فصيغ الكلمة في اللغة على قدر من الأهمية بمكان لتشخيص أشكالها التي تحدث في اللفظ.

وما نعنيه بالوظيفة التعبيرية expressive function للخاصية الصوتية هو تحديد شعور المتكلم أو وجهة نظره. على سبيل المثال: نبر الكلام word stress غير مميز في اللغة الفرنسية ولا يلعب دورًا محددًا كما هو الحال في معظم اللغات. وعلى أية حال، فهناك تلفظ مفخم emphatic pronunciation في بداية الكلمة والذي له وظيفة تعبيرية علمية. وإنه من الراجح حقًّا أن نقول: إن كل لغة وضعت مصادر صوتية غنية معينة تحت تصرف مستخدميها

للتعبير عن شعورهم. وما لم تكن نظرية المعنى اللغوي محددة إزاء ما يتعلق بما له صلة في خلق التعبير الصحيح والخاطئ فإنه من المؤكد أن نتعامل مع الوظيفة التعبيرية للغة بمصطلحات مماثلة مع وظيفتها الوصفية descriptive function .

وليس في دراسة النظام الصوتي phonology فحسب يقيم أعضاء مدرسة براغ الدليل ليثبتوا وظيفتهم functionalism وأكثر خصوصية استعدادهم للأخذ في الاعتبار وظائف اللغة التعبيرية والبيشخصية (خاص بالعلاقات بين الأشخاص). ومنذ البداية فقد عارضوا ليس التاريخية والفلسفة الوضعية [5] لما توصل إليه النحويون المحدثون Neogrammarians في اللغة فحسب، ولكن أيضًا المذهب العقلي Intellectualism لما قبل القرن التاسع عشر للتقليد الفلسفي الغربي طبقًا لكون اللغة هي التجسيد أو التعبير عن الفكرة و"الفكرة" هنا تعني الفكرة الحرفية. إن المذهب العقلي، كما سنرى، هو أحد عناصر الحركة الغربية المنشأ والمعقدة في علم اللغة الحديث والتي صنفناها باسم "التوليدية". وليس هناك من تناقض منطقي بين الوظيفية والمذهب العقلي. ومع ذلك فإن المرء كما هو عند العقليين يمكن أن يتبنى وجهة النظر القائلة بأن الوظيفة الأساسية والوحيدة للغة هي التعبير عن الفكرة الحرفية، وإلى الآن، وكما يبرهن الوظيفيون أن بناء الأنظمة اللغوية يتحدد بالتكيف الغائي teleological adaptation لهذه الوظيفة الأساسية الوحيدة. وعلى أية حال، ففي التطبيق إذ ليس لغويو مدرسة براغ فحسب، بل آخرون سموا أنفسهم بالوظيفيين، الذين جنحوا إلى تأكيد تعدد الوظائف للغة Multifunctionality وأهمية الوظائف التعبيرية والاجتماعية والإرادة مقارنة أو بالإضافة إلى الوظيفة الوصفية.

إن واحدة من المعاناة الممتعة لمدرسة براغ، بقدر ما يتعلق بالبناء النحوي للغة، كان ولا يزال منظور الجملة الوظيفية functional sentence perspective (أن تستخدم المصطلح الذي يؤكد الدافع الوظيفي للبحث في هذه المسألة).

ولقد أشرت في البداية إلى:

1 - هذا الصباح نهض متأخرًا This morning he got up late.

2 - نهض متأخرًا هذا الصباح He got up late this morning.

وقد تعتبر روايتان للجملة ذاتها، وقد تعتبران خيارًا، كجملتين مختلفتين. وأيما كانت وجهة النظر التي نتبناها فهناك شيئان واضحان، الأول: هو أن (1) و(2) هما مكافئ حقيقي مشروط لترجمة "المعنى" ويمكن القول بأن لهما المعنى نفسه. والثاني: أن السياق في (1) يمكن أن يلفظ باختلاف منتظم عن سياق لفظ الجملة (2) وبقدر ما يتعلق الأمر بترتيب الكلمة مما سيكون مسألة نظم الجملة (Syntax[6] ويمكن القول بأن في بعض اللغات على الأقل، أن التركيب النظمي Syntactic للألفاظ أو للجمل تحت تعريف "الجملة" الذي سيؤلف 1 و 2 جملتين مختلفتين) سيحدد بمجموعة الألفاظ المتصلة وبالخصوص لو سلمنا جدلاً بمعلومة معطاة كخلفية وما سيقدم للوقوف ضد هذه الخلفية والذي سيكون جديدًا على السامع ومن ثَمَّ فهو على دراية حقيقية وشاملة. إن اعتبار هذا النوع يقع ضمن تعريف لغويي مدرسة براغ، وقد أسموه منظور الجملة الوظيفي functional sentence perspective وهناك العديد من الاختلافات في المصطلحات والترجمات مما يصعب المقارنة بين المعالجات الوظيفية لمجموعة الألفاظ المتصلة مع الهيكل النظري المألوف. إن كل ما ساهموا به هو قناعتهم الراسخة بأن بناء الألفاظ يحدد بالاستعمال الذي وضعت فيه وبالسياق المتصل الذي حدثت فيه.

على العموم، باستطاعتنا القول بأن الوظيفية Functionalism في علم اللغة نزعت نحو تأكيد الصفة الآلية للغة. وعليه، فهناك شبه طبيعي بين وجهة نظر الوظيفيين وبين اللغويين الاجتماعيين Sociolinguists أو مع فلاسفة اللغة الذين صنفوا سلوك اللغة تحت اعتناقهم الكبير لنظرية التفاعل الاجتماعي. فالوظيفية من هذه الجهة ومن الجهات الأخرى ضد التوليدية generativism بكل تأكيد.

ولكنها هل هي الحقيقة، كما يؤكدها الوظيفيون، أن بناء اللغة الطبيعي يحدد بالعديد من الوظائف العلاماتية semitic functions التي يتوقف بعضها على بعض مثل الوظائف التعبيرية والاجتماعية والوصفية هل هي تحقق هذا البناء؟ ولو فعلت فإن بناءها سيكون غير اعتباطي من هذه الجهة، وإلى هذا الحد الذي تحقق به أنظمة اللغة المختلفة الوظائف العلاماتية نفسها، ومن الممكن التوقع بأنها متشابهة إذا لم تكن متماثلة في البناء. والآن

ويمكن القول بأن اللغويين في ذات الوقت قد بالغوا في تحكيم العمليات النحوية وقد فشلوا في إعطاء الوزن المناسب للاعتبارات الوظيفية في وصف الظواهر الخاصة. ويمكن القول أيضًا: إن الإيضاحات الوظيفية موجودة أساساً إزاء العديد من الحقائق والتي تبدو اعتباطية تماماً، فعلي سبيل المثال: الحقيقة التي تقول بأن الصفة تسبق الاسم الموصوف بانتظام في العبارات الاسمية Noun Phrases في الإنكليزية ولكنها عادة تتبع اسمها في الفرنسية. والحقيقة التي.تقول بأن الفعل يأتي نهاية العبارات التبعية subordinate clause في الألمانية. وهكذا ففي الأمثلة المحددة سابقًا قد لوحظ ولا يزال بوضوح أن وجود واحدة من خصائص تحكمية اللغة يؤدي إلى تضمين وجود أو غياب لخاصية تحكمية أخرى ولكن أبعد من هذا، على الأقل، أن العموميات الضمنية Impilicational Universals لهذا النوع لم تكن واضحة على نحو مرضٍ في المصطلحات الوظيفية. وفي الحقيقة أنه سيبدو مقداراً كبيراً من التحكمية في العناصر اللافعلية non verbal components لنظام اللغة، وفي بنائها النحوي بخاصة، وذاك بأن الوظيفية، كما عرفت أعلاه، متعذر الدفاع عنها. ولم نتبع بالطبع الرواية الضعيفة عن الوظيفية التي طبقًا لها يكون بناء أنظمة اللغة جزئيًا، مع أنها ليس كليًا، محددة بالوظيفة فيتعذر الدفاع عنها على حد سواء. واللغويون الذين أطلقوا على أنفسهم سمة الوظيفيين نزعوا إلى تبني واحدة من الروايات الضعيفة.

التوليدية Generativism

إن مصطلح التوليدية استخدم هنا؛ ليشير إلى نظرية اللغة التي كانت ولا تزال تتطور خلال العشرين سنة الماضية أو نحو ذلك من قبل تشومسكي وأتباعه. فالتوليدية، بهذا الوصف، قد أثرت تأثيرًا هائلاً ليس في علم اللغة فحسب بل في الفلسفة وعلم النفس وباقي فروع المعرفة المتعلقة باللغة. وقد حملت التوليدية معها الوعد بالمنفعة والوصف الملائم للغات الإنسانية بواسطة النحو التوليدي لنوع واحد أو أنواع أخرى. ولكن هناك الكثير والأكثر من هذا للتوليدية، فكما يمكن تحديده دائمًا بالرغم من وعد عقائد التوليدية التي ترى ضرورة التطبيق للنحو التوليدي والفائدة المتوخاة من ذلك فإن العكس لا يحمل

الحقيقة. وفي الحقيقة فإن هناك أعدادًا من اللغويين الذين تأثروا بالفوائد التكنيكية لأهمية توجه نظام تشومسكي التحويلي – التوليدي عندما وضعه لأول مرة في المقدمة أواخر الخمسينات وقد فسروه حينما ربطوا أنفسهم بافتراضات ومذاهب تدعى اليوم بالتوليدية. إنه كذلك جدير بالتأكيد بأن هذه الافتراضات والمذاهب، في الأعم الأغلب، غير مترابطة منطقيا، فالبعض منها، كما سأشير لاحقًا، مقبول إلى حد بعيد أكثر من غيره. على أية حال، فإن تأثير التوليدية التشومسكية في جل النظرية اللغوية كان ولا يزال عميقًا وأكثر انتشارًا حتى على أولئك الذين رفضوا هذا أو ذاك الجزء من النظرية قد نزعوا إلى ذلك على النحو الذي جعل تشومسكي ييسرها لهم.

إن التوليدية عادة ما ظهرت على أنها مدرسة متطورة عن، وكرد فعل للمدرسة المهنية السابقة الوصفية الأمريكية بعد بلومفيلد هي أنها ترجمة محددة للبنيوية. وبخصوص هذه النقطة فإنه من الممكن تبرير ما نراه من أصل التوليدية مع علم اللغة في هذا الضوء. ولكن، وكما توصل إلى فهمه تشومسكي نفسه، ذاك بأن هناك العديد من الوشائج التي من خلالها شكلت التوليدية الرجوع إلى أقدم وأكثر وجهات النظر تقليدية حول اللغة. وهناك وجهات نظر أخرى تتبناها التوليدية ببساطة دونما نقد وافٍ، وهي خصائص البنيوية ما قبل بلومفيلد التي لم تلق أي قبول البتة لدى المدارس اللغوية. إنه من المستحيل أن نتعامل بقناعة مع الروابط التاريخية بين توليدية تشومسكي وآراء أسلافه في هذا الكتاب، والغرض الحالي نفسه، إنه ليس من الضروري القيام بذلك. إنني سأستخرج العناصر التي هي أكثر أهمية وأكثر تميزًا في توليدية تشومسكي الحاضرة اليوم وسأعلق عليها باختصار.

وكما لاحظنا في الفصل الأول، أن نظام اللغة هو نظام إنتاجي بالمفهوم الذي تسمح به أنظمة اللغة هذه ببناء واستيعاب المنطوقات غير المحدودة، والتي لم تحدث سابقًا أبدًا من خلال تجربة مستخدميها.

وفي الحقيقة، وبافتراض أن اللغات الإنسانية لها خاصية التكرار recursiveness وهذا يظهر أنه افتراض فعال، فهذا يصح بالضرورة أن تصنيف مجموعات من المنطوقات في

أية لغة معطاة هو حر في وغير محدود العدد. وقد أولى تشومسكي اهتمامه بهذه الحقيقة في أعماله المبكرة في نقده للرأي الواسع الاعتقاد ذاك بأن الأطفال يتعلمون لغتهم الأصلية بالاستنطاق، كليًّا أو جزئيًّا، لألفاظ الكبار. ويوضح إذا كان الأطفال في أعمار معتدلة وصغيرة قادرين على التلفظ بألفاظ غريبة والتي سيدركها المتكلم الكفء للغة ويعتبرها مركبة تركيبا نحويًّا جيدًا فإن هناك شيئا ما غير التقليد قد حدث. يجب أن يكونوا قد استنتجوًا وتعلموًا أو بكلمة أخرى قد اكتسبوًا معرفة القواعد النحوية استنادًا إلى ألفاظهم التي نطقوها، والتي يمكن الحكم عليها بأنها ذات بناء جيد. وسنلقي نظرة بإمعان إلى مسألة كسب اللغة في الفصل اللاحق. وهنا، يكفي أن نلاحظ فيما لو أن تشومسكي على صواب أو خطأ حول الأمور الأخرى التي طرحها في هذا الصدد، إذ لا يوجد هناك أدنى شك أن الأطفال لا يتعلمون ألفاظ اللغة بالروتين، ومن ثم يعيدون استنطاقها ببساطة استجابة للحافز البيئي.

إنني قد استخدمت كلمتي "حافز" و"استجابة" بتأنّ في هذه النقطة. إنهما مفتاح المصطلحات للمدرسة السيكولوجية المعروفة بالسلوكية behaviourism [7] والتي كانت ذات تأثير كبير في أمريكا قبل وبعد الحرب العالمية الثانية Second World War واستنادًا إلى السلوكيين فإن كل شيء يوصف عادة بأنه من نتاج الفكر البشري، بضمنه اللغة، يمكن أن يفسر وبإقناع بلغة التقوية والأشراط conditioning [8] للانعكاسات النفسية المحضة: في الأساس، بلغة العادات أو نماذج الحافز – الاستجابة Stimulus – response التي تنشأ بنوع التكييف نفسه الذي يجعل علماء النفس التجريبيين أن يدربوا الفئران المختبرية على الجري بإرباك. ومنذ أن قبل بلومفيلد Bloomfield نفسه بمبادئ السلوكية ودافع عنها بتفسيرها كقاعدة علمية لدراسة اللغة في كتابه المدرسي القديم الصادر عام (1935)، حيث إن هذه المبادئ قد لاقت قبولاً واسعًا في أمريكا، ليس من قبل علماء النفس فحسب، وإنما من قبل اللغويين من خلال ما يسمى بفترة ما قبل بلومفيلد Post – Bloomfield period .

وقد عمل تشومسكي Chomsky أكثر مما يعمله أي شخص لإثبات عقم نظرية السلوكيين اللغوية. وقد أشار إلى أن الكثير من المفردات الفنية للسلوكيين مثل (الحافز، الاستجابة،

الإشراط، التقوية.. إلخ) إذا ما أخذت بجد سوف لا تكون هناك أية صلة بينها وبين عملية اكتساب واستخدام اللغة البشرية. وقد بين أن رفض السلوكيين للإقرار بوجود أي شيء أكثر من ملاحظة مادية الأشياء وأن العملية تقوم على أساس رأي علمي زائف ومهمل. وقد جزم – وبقدر ما يذهب الدليل – بصحة أن اللغة متحررة من سيطرة الحافز Free from stimulus control وهذا ما يعنيه حينما يتحدث عن الإبداع creativity : وهو اللفظ الذي يتفوه به الشخص في أية مناسبة خاصة، هو مبدئيًّا، لا يمكن التنبؤ به ولا يمكن وصفه بالضبط بالمفهوم الفني لهذه المصطلحات، كرد للحوافز اللغوية أو غير اللغوية المتماثلة.

إن الإبداع، وفقا لوجهة نظر تشومسكي، هو الصفة المميزة -إلى حد استثنائي- التي تميز الناس من المكائن والحيوانات بقدر ما نعلمه. ولكنه إبداع محكوم بقواعد rule – governed. وهذا ما حظي به النحو التوليدي. إن الألفاظ التي نطلقها تتمتع ببناء نحوي محدد: أي إنها تتطابق مع قواعد متماثلة ذات بناء جيد. وعند المدى الذي ننجح فيه في تحديد هذه القواعد المبنية جيدًا، أو نحويًّا، يجب علينا أن نأتي بقدر من القناعة العلمية إزاء تلك الخاصية التي تتمتع بها اللغة، وهي إنتاجيتها التي تجعل عملية التدريب على الإبداع ممكنة. إن الإنتاجية يجب أن تلاحظ بأنها لا يمكن أن تتماثل مع الإبداع. ولكن هناك وشيجة جوهرية بينهما: إن إبداعنا في استخدام اللغة – هو حريتنا المتأتية من الحافز المسيطر والتي تظهر مع المجاميع المحدودة من إنتاج نظام اللغة. علاوة على ذلك، فإنها وجهة نظر تشومسكي، وهذه من الأجزاء المركزية في توليدية تشومسكي ذاك بأن القواعد التي تحدد إنتاجية اللغات البشرية لها خصائص شكلية تتمتع بها استنادًا إلى تركيب الذهن ا لبشري.

وهذا سيجيء بنا إلى العقلية Mentalism إنه ليس السلوكيون -ولكن علماء النفس والفلاسفة من مختلف الطوائف- قد رفضوا التمييز المرسوم عرفًا بين الجسد والعقل. إن تشومسكي تبنى الفكرة بأنها تمييز ساري المفعول (بالرغم من أنه سوف لا يقبل، بالضرورة، بالمصطلحات التي تشكلت منها سابقًا) وأن رأيه الذي يجادل فيه: إن علم اللغة Linguistics يلعب دورًا مهمًّا في الاستقصاء عن طبيعة الذهن. وسنعود إلى هذه

المسألة الآن. وفي غضون هذا فإنه من الأمور التي تستحق الملاحظة أن هناك خلافًا ليس كبيرًا بين وجهتي نظر بلومفيلد Bloomfield وتشومسكي Chomsky عن طبيعة ومدى فهم علم اللغة أكثر مما يتوقعه المرء. إن تعهد بلومفيلد للسلوكية كان له أثر تطبيقي محدود في تكنيكيات الوصف اللغوي الذي طوره هو و أتباعه. وأن عقلية تشومسكي، كما سنراها، هي ليست من النوع الذي (يقتبس من بلومفيلد) "تفترض اختلاف سلوك الإنسان هو بسبب تداخل جزء من عامل غير جسدي". إن عقلية تشومسكي تسمو على أكثر الاعتراضات القديمة بين الجسدية واللاجسدية التي استشهد بها بلومفيلد. إن تشومسكي، ليس بأقل مما قام به بلومفيلد، إنه يرغب في دراسة اللغة بإطار من المفهومات والافتراضات التي تأتي بها العلوم الطبيعية.

ومع ذلك فهناك خلافات ذات أهمية بين التوليدية التشومسكية وبنيوية كل من بلومفيلد وما قبل بلومفيلد. وأولها أن ندرس وجهات نظرها تجاه العموميات اللغوية Linguistic Universals . لقد أكد بلومفيلد وأتباعه الاختلاف البنيويَّ للغات (كما فعلت الغالبية التي سبقت البنيويين السوسيريين). وبالمقابل، فالتوليديون يستمتعون كثيراً بما لدى اللغات من خواص معروفة عامة. وفي هذه النقطة، فالتوليدية تمثل الرجوع إلى أقدم نحو تقليدي كما بسطه وأشار إليه باهتمام بورت رويال Port-Royal عام 1660 في قواعده النحوية والعدد الكبير من بحوث القرن الثامن عشر بخصوص اللغة، والذي رفضه كل من بلومفيلد وسوسير بوصفه تأمليًّا وغير عملي. ولكن موقف تشومسكي يختلف باهتمام عن أسلافه في التقليد نفسه في حين هم ينزعون إلى استنتاج الخصائص الضرورية للغة من الذي عقدوا عليه آراءهم أن يكون مقولات عامة سارية المفعول، منطقية أو حقيقية، فإن تشومسكي لديه انطباع جد بعيد عن خصائص اللغة العامة التي لا يمكن منحها هذا الاعتبار، وباختصار، بما يتعلق بالصفة العامة وليس الاعتباطية arbitrary . والاختلاف الثاني فقد منح اهتمامًا كبيرًا للخصائص الشكلية للغات ولطبيعة القواعد التي يتطلبها وصفها أكثر مما عمله تجاه العلاقات المعقودة بين اللغة والعالم.

إن سبب هذا التغيير في التأكيد، هو أن تشومسكي يبحث عن دليل لدعم وجهة نظره

وهي أن ملكة اللغة الإنسانية هي الفطرة Innate وأنواع خاصة Species-Specific . بكلمة أخرى التحولات في أصل اللغة، والاعتبار الوحيد بخصوص الاستخدام الوظيفي أو انعكاساته في بناء العالم المادي أو المقولات المنطقية التي يمكن إسقاطها من الحساب في هذا الرأي. وطبقا لوجهة نظر تشومسكي فهناك العديد من الخصائص الشكلية المعقدة الموجودة في جميع اللغات، ولكنها لا تزال إلى الآن اعتباطية، بمعنى أنها لا تؤدي هدفًا معروفًا ولا يمكن استنتاجها من أي شيء آخر عن الذي نفهمه عن الإنسانية أو العالم الذي نعيش فيه.

في حين هناك، في الحقيقة، خصائص شكلية عامة في اللغة، من النوع الذي قد سلم به التوليديون، ولم يكن محدودًا إلى الآن. ولكن البحث عنها ومحاولة تكوين نظرية عن بناء اللغة من خلالها سيجدون أنفسهم مسئولين عن عمل أكثر متعة في كل من علم اللغة النظري والوصفي في السنوات الأخيرة.

والعديد من النتائج التي كانوا ولا يزالون يحصلون عليها هي نتائج مستقلة الأهمية بغض النظر عن أنها تدعم فرضيات تشومسكي حول الفطرة والأنواع المحددة للمقدرة اللغوية أو لا.

والاختلاف الآخر بين التوليدية وبنيوية بلومفيلد وقبل بنيوية بلومفيلد، ولو أن التوليدية أقرب إلى بنيوية سوسير في هذه النقطة، فالاختلاف يتعلق بما رسمه تشومسكي بين القدرة Competence والأداء Performance . إن القدرة اللغوية للمتلكم هي ذلك الجزء من فهمه – فهمه لنظام اللغة بحد ذاته – استنادًا إلى ما يقدر على إصداره من مجموعة كبيرة غير محددة من الجمل التي تشكل لغته (في تعريف تشومسكي للغة إنها مجموعة من الجمل). والأداء من جهة أخرى هو سلوك اللغة: Language behaviour وهذا أمر محدد ليس بالقدرة اللغوية للمتلكم فحسب، ولكن أيضًا باختلاف عوامل غير لغوية تشمل، من جهة، الاتفاقيات الاجتماعية، المعتقدات حول العالم، وجهات نظر المتكلم الحسية تجاه ما يتحدث عنه، افتراضاته حول وجهات نظر الذي يحاوره،.. إلخ، ومن جهة أخرى عمل الميكانيكيات النفسية والفسيولوجية التي تتضمن عملية صدور الألفاظ.

وهكذا فقد رسم التمييز بين المقدرة والأداء في الواقع المحض للتوليدية. وكما ظهر في

السنوات الأخيرة فإنه يتعلق بالعقلية والعمومية كما سيأتي لاحقًا. إن قدرة المتكلم اللغوية هي مجموعة من القواعد التي تشكلت في ذهنه استنادًا إلى تطبيقات قابليته الفطرية على كسب معلومات اللغة التي قد سمعها من حوله في الطفولة. إن النحو الذي وضعه العالم النحوي لنظام اللغة الذي نحن بصدده يمكن أن يرى كأنموذج لقدرة الناطق الأصلي للغة. وإلى المدى الذي تكون فيه نماذج ناجحة لخصائص القدرة اللغوية كالقابلية على إصدار الكلام وفهم عدد غير محدود من الجمل، فإنها ستمثل أنموذجًا لواحدة من ملكات أو أعضاء العقل. وإلى المدى الذي يمكن لنظرية النحو التوليدي أن تشخص ذلك الجزء من القدرة اللغوية، وأن تكون أنموذجا يكون عامًّا (واعتباطيًّا) ويفهم على أنه فطري، فإنها يمكن أن تعتبر على أنها تتفق مع اختصاص علم النفس الإدراكي مثلما أنها تصنع مساهمتها الخاصة والفريدة لدراسة الإنسان. إنها بالطبع، هذه الناحية من التوليدية والتي بإعادة تفسيرها ومنحها حياة جديدة للفكرة التقليدية عن النحو العام الذي يثير اهتمام علماء النفس والفلاسفة.

إن التميز بين القدرة competence والأداء Performance وكما رسمه تشومسكي هو مشابه لتمييز دي سوسير الذي رسمه بين اللغة والكلام، وكلاهما يستند إلى الفصل المعقول بين ما هو لغوي وعما هو غير لغوي، وكلاهما يشترك في رواية تجانس نظام اللغة. وبخصوص الاختلافات بين التمييزين، فإنه موضع جدل حيث إن سوسير يميل ميلاً نفسيًّا قليلاً نحوها أكثر من تشومسكي، على الرغم من أن سوسير بعيد عن الوضوح إزاء هذه النقطة، فالعديد من أتباعه قد تناولوا نظام اللغة على أنه شيء مجرد تمامًا أكثر حتى من المعرفة المثالية للمتكلم عنها. والاختلاف المتماثل الأكثر وضوحًا والذي يجب أن يفهم هو ما يخص الدور الذي يحدد قواعد نظم الجملة syntax وقد أظهر سوسير انطباعًا ذاك بأن جملة اللغة هي مثال للكلام parole وهو أتباعه تكلموا عن اللغة langue [9] كنظام علاقات وقد تكلموا قليلاً عن القواعد التي نحتاج إليها لإصدار جملة. ومن جهة أخرى فإن تشومسكي يصر بدءًا على إمكانية إصدار وفهم وبناء جملة بشكل جيد هو جزء مركزي، وفي الحقيقة، الجزء المركزي لقدرة المتكلم اللغوية. وفي هذا الخصوص، فإن توليدية تشومسكي تشكل

تقدمًا، وبلا شك، على بنيوية سوسير.

إن تمييز تشومسكي بين القدرة والأداء competence – performance قد جاء بعد نقد كثير. والبعض منه إزاء صحة ما أسميته برواية التجانس: بشرط أن تفسر "الصحة" validity بلغة النتيجة من الهدف من وصف ومقارنة اللغات، فإن هذا الخط من النقد قد يهمل. وبهذا الشرط نفسه فإننا قد نهمل النقد إزاء ما رسمه تشومسكي من تمييز حاد بين القدرة اللغوية وبين الأشكال الأخرى للمعرفة وقدرة الإدراك التي يتضمنها استخدام اللغة بقدر ما يتعلق بالبناء النحوي والصوتي، فالتحليل الدلالي يكون أكثر إشكالاً. وفي الوقت نفسه، فإنه يجب أن يفهم بأن مصطلحي "القدرة" و"الأداء" غير مناسبين ومفضلين بقدر ما يتعلق بما في هذا التمييز بين ما هو لغوي وما هو غير لغوي. ولنفرض أن سلوك اللغة، على أنه نظامي، إلى حد بعيد، يفترض مقدما مختلف أنواع إمكانية الإدراك أو القدرة، وبأن هناك نوعًا واحدًا هو معرفة المتكلم بقواعد ومفردات نظام اللغة، فإنه من الحيرة أن نقول، على الأقل، أن نقيد مصطلح "القدرة" كما حددته توليدية تشومسكي، بالذي يجب أن يفترض أن يتصل بنظام اللغة، وأن يرمي كل شيء في سلة مصطلح "الأداء" وأنه سيكون أفضل لو نتكلم عما هو قدرة لغوية وعما هو ليس بقدرة لغوية، من جهة، وعن الأداء أو سلوك اللغة الحقيقي من جهة أخرى. ولم يستحق شيئًا ذاك الذي قام به تشومسكي في معظم عمله الأخير فإنه نفسه ميز بين القدرة النحوية وعما أطلق عليه بالقدرة البراكماتية.

وإلى حد جد بعيد، فالنواحي مثار الخلاف الأكثر للتوليدية هي ترابطها مع العقلية وإعادة تأكيدها المذهب الفلسفي للمعرفة الفطرية. وبقدر ما يتعلق جزء لغويّ أكثر دقة (وهو الجزء البنيوي microlinguistics part)، فإن هناك الكثير مما يشكل نقطة خلاف. ولكن معظم هذا له نصيب في بنيوية ما بعد بلومفيلد أكثر من انتشارها وظهورها، أو مع مدارس أخرى لعلم اللغة بضمنها بنيوية سوسير ومدرسة براغ، والتي هي الآن تتحد بنفسها بناحية أو أخرى. على سبيل المثال، إنها تتابع تقليد ما بعد بلومفيلد في نظم الجمل syntax وذلك بجعل المورفيم morpheme[10] الوحدة الأساسية في التحليل وبإعطاء أهمية أكبر للعلاقات المتشكلة أكثر من فعلها لتحقيق الاعتماد عليها.

وتعهدها في استقلالية نظم الجملة syntax (بكلمة أخرى نظرتها بأنه يمكن وصف البناء النظمي للغات Syntactisc Structure of Languages من دون اللجوء إلى الاعتبارات الدلالية) الذي قد يعزى إلى إرثها لما بعد بلومفيلد، على الرغم من أن لغويين آخرين خارج نطاق تقليد ما بعد بلومفيلد، قد تبنوا الرأي نفسه. وكما رأينا، فإن التوليدية التشومسكية أكثر قربا من البنيوية السوسيرية وما بعد السوسيرية في ضرورة رسم تميز بين نظام اللغة واستخدام ذلك النظام في سياق المنطوق الخاص. وإنها قريبة أكثر من البنيوية السوسيرية وبعض تطوراتها الأوروبية في نظرتها إلى علم الدلالة Semantics . وأخيرًا، فقد انسحبت بثقل على نظريات مدرسة براغ في علم الصوت Phonology ومع ذلك، دونما أي قبول لمبادئ الوظيفية functionalism . فالتوليدية في جميع الأحوال وأكثرها تقدمت ككل موحد تكون فيه التفاصيل الفنية للتشكيل على تكافؤ مع عدد من الأفكار غير المترابطة منطقيًّا عن اللغة وفلسفة العلم. وهذه تحتاج إلى أن تنحل وتقيم وفقا لجدارتها.

(الحواشي) الهوامش

1- هذه ترجمة لجزء من كتاب (اللغة واللسانيات) Language and Linguistics لجون ليونز John Lyons، وهو أستاذ علم اللغة العام في جامعة أدنبره وعميد مدرسة العلوم الاجتماعية في جامعة ساسكس وحاضر في العديد من الأقطار الأوروبية، وعضو شرف في الجمعية اللغوية الأمريكية ولديه عدة مؤلفات في حقل علم اللغة منها:Structural Semantics 1964, Introduction to Theoretical Lingusistics 1968, New Horizons in Semantics, Linguistics 1970 (جزءان)، ورئيس تحرير مجلة علم اللغة 1969 – 1965.

2 – الرواقيون Stoics أتباع المذهب الفلسفي الذي أنشأه زينون الآيلي عام 300ق .م والذي قال بأنه الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة.

3 – اللغة عند دي سوسير Langue ، وتقابل Parole أي الكلام.

4 – الملامح التطريزية Suprasegmental or prosodic features هي خصائص الكلام التي لا تنحصر بجزء واحد من أجزاء الكلام، مثل النغمة، والترنيم، والتحول في نغمة الصوت.

5 – الفلسفة الوضعية :فلسفة أوغست كونت التي تعنى بالظواهر والوقائع اليقينية فحسب، مهملة كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة.

6 – Syntax ترتيب كلمات الجملة في أشكالها وعلاقاتها الصحيحة.

7 – السلوكية Behaviourism نظرية أو طريقة تقول بأن دراسة سلوك الإنسان والحيوانات الظاهر هو موضوع علم النفس الحقيقي.

8 – الأشراط Conditioning مصطلح في علم النفس يعني عملية ربط منبه برجع لم يكن بينه وبين ذلك المنبه صلة في الأصل وذلك عن طريق التداعي.

9 – Langue : اللغة عند (دي سوسير) تقابل Parole أي الكلام.

10 – المورفيم Morpheme الوحدة الصرفية.

المراجع

Chomsky, N. (1979) Rules and Representations. New York: Columbia University press. (British ,edn, Oxford: Blackwell
.(1980

.Ehrmann, J. (ed.) (1970) Structurdlism. New York: Doubleday

.(Halliday, M.A.K. (1970) Language structure and language function. In Lyons (1970

Halliday, M.A.K. (1960) System and Function in language: selected papers, ed. G.R Cress. .London: Oxford University press

.Methuen :Hawkes, T. (1977) Structuralism and Semiotics. London

.Mouton :Ivic, M. (1965) Trends in Lingukstícx. The Hague

Jakobson, R. (1973) Six lecons sur le son et le sens (with preface by C. Levi-Strauss). Paris: Minuit. English translation: Six lectures on Sound and Meaning. Hassocks, Sussex: Harvester, .1978

.Lane, M. (ed.) (1970) Structuralism: A Reader. London: Cape

Lepschy, G> (1970) A Survey of Structural Linguistics. London: Faber& Faber. (Orignal Italian .(Edition, La linguistique structurale. Turin: Einaudi,1966

Leroy, M. (1963) Les grands Courants de la linguistique moderne. Brussels & Paris: Presses Universitaires. English translation: The Main Trends in Modern Linguistics. Oxford: Blacvkwell, .1976

Lyons, J. (1977a) Chomsky, 2nd edn. London: Fontana & New York: Viking / Penguin (1st edn, .(1970

.Malmberg, B. (1964) New Tends in Linguistics. Stockholm: Naturmetodens Sprakinstitut

Matthews, P. H. (1979) Generative Grammar and Linguistics Competence. London: Allen & .Unwin

Mohrmann, C., Sommerfelt, A. & Whatmough, J. (EDS) (1961) Trends in European and American Linguistics 1930-1960. Utrecht&Antwerp: Spectrum

Norman, F. & Sommerfelt, A. (eds) (1963) Trends in Modern Linguistics. Utrecht&Antwerp: .Spectrum

Piattelli-Palmarini, M. (1979) Theories du langage. Theories de L apprentissage. Le debt entre Jean Piaget Noam Chomsky. Paris: Seuil. English translation: Language and Learning: The debate between Jean Piaget and Naom Chomsky. Boston:

.Harvard University Press & London: Routledge & Kegan Pul, 1980

Robins, R.H. (1979) A Short History of Linguistics, 2nd edn. London: Longman. (1 st edn, .(1967

.Sampson, Geoffrey (1975) The Formof Language. London: Weienfeld & Nicolson

.Sampson, Geoffrey (1980) Making Sense. Oxford: Oxford University Press

.Sanders, Carol (1979) Course de linguistique generale de Saussure. Paris: Hachette

Smith, N.V.& Wilson, D. (1979) Modern Linguistics: The Results of the Chomskyan Revolution. .Harmondsworth: Penguin

Vachek,j. (de.) (1964) A Prague School Reader in Linguistics Bloomington: Indiana University .Press

.Vachek,J. (1966) The Linguistics School of Prague. Bloomington: Indiana University Press